الفصل الرابع

أدب الأطفال

الفصل الرابع

أدب الأطفال

مفهومه :

سبق أن قلنا إن تعليم اللغة العربية في بداية المرحلة الابتدائية يتصل بتعليم الأطفال أشكالاً واسعة لا فروعًا ضيقة. فتعليم الأطفال ينبغي أن يبدأ بالمحادثة، وحكاية القصص، وإنشاد الأناشيد، ثم بعد ذلك تتجه العملية التعليمية إلى القراءة والكتابة والقواعد النحوية التي يجب أن تعلم من خلال النصوص الجميلة.

ولا يختلف أدب الأطفال في المرحلة الابتدائية عن أدب الكبار. فالأدب في كلا الحالتين هو تعبير فني هادف ينبثق عن لتصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة. لكن أدب الأطفال –مع ذلك– يختلف عن أدب الكبار من حيث الموضوع الذي يتناوله، والفكرة التي يعالجها، والطريقة التي يتم تناوله بها. والأسلوب الذي يقدم به.

مشكلة أدب الأطفال :

وتكمن مشكلة أدب الأطفال الحقيقة عندنا، في قلة الإنتاج الأدبي للأطفال، وفي عدم الالتفات إلى هذه المسألة إلا أخيرًا. وعندما بدأ الاهتمام بقضية أدب الأطفال سارع الجميع إلى الإنتاج الغربي يترجمونه إلى العربية بما فيه من مضامين تتصادم مع البيئة العربية الإسلامية شكلاً وموضوعًا.. وكثر عدد العاملين في هذا الميدان من التجار أكثر من الأدباء!

إننا بحاجة إلى رسم منهج إسلامي لأدب الأطفال واليافعين والشباب. إن ترك هذا الميدان للأدب المترجم يعني صياغة وجدان أطفالنا وشبابنا وأذواقهم وميولهم صياغة غريبة وبعيدة عن وجدان الأمة وعقيدتها وأخلاقها ونظمها النابعة منها، وفي ذلك استلاب للعقول.. بل للأرض ومن عليها.

إن الجهود الرائدة للشهيد سيد قطب وللأستاذ أبو الحسن الندوي في الدعوة إلى أدب إسلامي متميز، وفي أصول الكتابة الأدبية الإسلامية، وما تلا ذلك من جهود مخلصة للأستاذ علي أحمد باكثير، والأستاذ محمد قطب، والدكتور عماد الدين خليل، والدكتور نجيب الكيلاني وغيرهم.. كل هذه الجهود ما تزال –في معظمها– أطروحات عامة لم تنعكس بالقدر المطلوب في صورة نماذج أدبية، بأقلام إسلامية واعية، وعارفة بأصول الصنعة الفنية. كما أن هذه الجهود لم تؤد إلى وقف الغياب شبه الكامل لأدب الأطفال الذي أصبحت له مؤسساته ودورياته ومتخصصوه على المستوى العالمي، بينما لا يزال يتعثر عندنا، ويفتقر إلى التجارب الجادة، والنماذج الجيدة التي تستطيع أن تبلغ إشراقة افسلام، وأن تعبر عن الشخصيات الإسلامية، والمواقف والقيم والمعايير الإسلامية التي يحتويها التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة.

إن معظم ما يقدم لأطفالنا من نصوص أدبية في المرحلة الابتدائية تعوذه العاطفة الصادقة، والصياغة الفنية الهادفة، وهو أقرب إلى الكلام المنظوم منه إلى التعبير الفني الجميل، لذلك فهو فقير في قدرته على تربية الإحساس بالذوق والجمال في نفوس أطفالنا ومشاعرهم.

لقد أوصت رابطة العالم الإسلامي العالمية في مؤتمرها الثاني الذي عقد بمدينة استانبول برئاسة الأستاذ أبو الحسن الندوي، بضرورة تكثيف الاهتمام بأدب الطفل المسلم، والعمل على إنتاج وطباعة مجموعات من القصص والأناشيد والمسرحيات والدراسات عن هذا الأدب. وحث الأدباء الذين حضروا هذا المؤتمر المفكرين الإسلاميين المهتمين بأدب الأطفال أن يستلهموا موضوعاتهم من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ومن التراجم الإسلامية، وسائر كتب التراث الإسلامي، ومع مراعاة الشروط الفنية فيما يبدعون.

وناشد أعضاء المؤتمر أصحاب المواهب الفنية والقدرات الأدبية أن يتخصص بعضهم في أدب الأطفال، وأن يهتموا بإبداع النصوص الإسلامية الجيدة التي يمكن الاستفادة منها عن طريق عرضها في وسائل الإعلام المختلفة. وفي هذا الصدد صدر ديوان «رياحين الجنة» للشاعر عمر بهاء الدين الأميري، وفي الطريق ديوان آخر للأستاذ محمود مفلح.

كما أوصى المؤتمر النقاد الإسلاميين بتقويم الإنتاج المعاصر لأدب الأطفال، سواء منه المترجم أو غير المترجم، وبيان إيجابياته وسلبياته، وتشجيع الترجمة المتبادلة بين لغات الشعوب الإسلامية في أدب الأطفال. ووضع دليل للإنتاج الإسلامي المعاصر في هذا الميدان. وإجراء المسابقات بين ألوان الإنتاج المختلفة لأدب الأطفال، ودعم المجلات الإسلامية التي تعني بهذا الأدب.

وربما كان من الاستجابات المبكرة لما دعا إليه هذا المؤتمر، الدراسة التي أشرف عليها الكاتب، وقامت بها إحدى طالبات الدراسات العليا (الماجستير) في كلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض، وعنوانها «تحليل محتوى أدب الأطفال في ضوء معايير الأدب في التصور الإسلامي». وقد اختارت الباحثة «القصة» من بين أدب الأطفال، باعتبارها أكثر ألوان هذا الأدب شيوعًا وتأثيرًا، كما أنها أكثر الألوان إنتاجًا وانتشارًا في معظم أقطار الأمة الإسلامية.

والهدف من هذه الدراسة تحديد المعايير الإسلامية للأدب. أي تحديد مجموعة المواصفات التي ينبغي أن يكون عليها أدب الأطفال عمومًا، والقصة منه على وجه الخصوص في التصور الإسلامي. ثم استخدام هذه المعايير في تحليل عينة ممثلة من قصص الأطفال للوقوف على جوانب القوة وجوانب الضعف فيها توطئة لتقويمها وتوجيهها الوجه السلمية.

معايير أدب الأطفال في التصور الإسلامي:

فيما يلي مجموعة من المعايير التي يمكن أن تعين في إنتاج الأدب للأطفال، وأيضًا في اختيار النصوص الأدبية المناسبة لها في الدراسة:

١- أن يعرض أدب الأطفال العقيدة الإسلامية بطريقة تحبب الأطفال فيها، وتقربهم منها، حتى يروها مصدر أمنهم وسعادتهم.

٢- أن ينمي لديهم فهم التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة.

٣- أن ينمي الأدب قيم الإخلاص في القول والعمل، والصراحة في الرأي والشجاعة في الدفاع عن الحقيقة.

٤- أن ينمي الأدب في الأطفال قيم احترام الآخرين، وحسن الظن بهم، وحفظ غيبتهم.
٥- أن يعين الأطفال على الصدق والاستقامة، وعلى أداء الأمانة وحفظ الكرامة.
٦- أن يساهم في معرفة الطفل بمجتمعه الإسلامي ويقوي فيه روح التضامن والتعاون، والإيجابية في عمارته وترقيته.
٧- أن يعين الأطفال على مواجهة المشكلات، وحلها عن طريق التفكير، والتخطيط والعمل الجاد.
٨- أن يحبب الأطفال في القراءة، ويعودهم على ارتياد المكتبات، وألفة الكتاب، وصحبة المجلة والصحيفة.
٩- أن يربي في الأطفال القدرة على الثبات على المبدأ السليم، والجهاد في سبيل ترسيخه.
١٠- أن يربي في الأطفال الرغبة في احترام الآخرين وحبهم والعمل على إسعادهم.
١١- أن يعرض بألفاظ وأساليب تناسب قدرات الأطفال اللغوية، وفي إطار قاموسهم اللغوي.
١٢- أن تتناغم فيه المباني والمعاني الأدبية، عن طريق استخدام الألفاظ والتعابير الجميلة الموحية.
١٣- أن يستخدم الأسلوب المعتمد على الحركة والتجسيم والتمثيل والمحادثة والحوار، أكثر من الأسلوب الوصفي.
١٤- أن يتصف أسلوب أدب الأطفال بالوضوح وبساطة اللغة، من حيث المفردات والتراكيب.
١٥- أن تستخدم فيه الأفعال الواضحة المعبرة، والأسماء العربية المألوفة.
١٦- أن يتوفر فيه عنصر الإثارة والتشويق، والجدة والطرافة والخيال والحركة.
١٧- أن تتسم الجملة فيه بالقصر والسهولة في أداء المعنى، وتصويره بطريقة فنية موحية.

١٨- أن تكون الفقرات متكاملة ومترابطة في أداء المعاني الكلية والجزئية.

متى يبدأ تدريس الأدب للأطفال:

إن الأدب بنوعيه: الشعر والنثر، هو أحد مواد تذوق الجمال التي ترمي إلى تكوين الميل إلى الجمال وتقديره والتمتع به. فهو أحد مواد الفنون الجميلة، كالموسيقى والغناء، والرسم، ...إلخ.[1]

والطفل قبل دخلوه المدرسة يسمع أنواعًا من الإنتاج اللغوي، مما يطلق عليه أدب بالمعنى الخاص. فهو يستمع بشغف إلى القصة الجميلة تسردها له أمه أو جدته. وهو يطرب لأغنية تغنيها له أمه، أو يسمعها من المذياع. وهو في سنواته الأولى يطرب للموسيقى ويتمايل معها، ويطرب لنغم الشعر وموسيقاه وإيقاعه ويتمايل معه ويردده جريًا على سجيته من غير تكلف، ويشعر بالسعادة والاسترخاء ويسلم نفسه للنعاس بينما تحكي له أمه الحكاية أو تقص عليه قصة قبل النوم.

وهذه الأمثلة كلها تشير إلى أن الطفل يستجيب للأدب ويحس بجماله قبل أن يدخل المدرسة، وأن الأدب لا يجب تأخيره إلى أن يدخل الطفل المدرسة، بل يجب البدء في تقديمه للطفل في السن التي يستجيب فيها الطفل لما يسمعه من أدب الغناء، وأدب القصة، سواء أكانت هذه الاستجابة نتيجة لفهمه المعني، أم طربًا لموسيقى الإيقاع وحده.

ولهذا فنحن «نرى أن أدب الطفولة ذو شأن عظيم في التربية، وأن من الخطأ تقليل العناية به أو إهماله، وأن دراسة هذا الأدب يجب أن تبدأ بما يتذوقه الطفل قبل دخوله المدرسة»[2].

لقد زرت بعض دور الحضانة في لندن وشاهدت المدرسة وهي تجلس على كرسي صغير منخفض والأطفال ملتفون حولها وهي تحكي لهم حكاية وهم يصغون إلى كلماتها

(1) See, Flood., I; & Lapp. D. Language/ Reading Instruction For the Young Child. N. Y., Machmillan Publishing Company. 1981. pp. 201-225.

(٢) عبد العزيز عبد المجيد: مرجع سابق، ص٢٩١.

وحركاتها ونغمة صوتها كأن على رؤوسهم الطير. وكلما انتهت قصة طلبوا منها حكاية قصة أخرى أو حكاية نفس القصة السابقة من أجل مزيد من المتعة والسرور.

ولقد شاهدت منظرًا آخر لأطفال وقفوا وقفة خاصة وهم يشدون بأغنية أو يرددون نشيدًا بإيقاع موسيقي جميل، وهم سعداء فرحين يبدو على وجههم البشر والسعادة. لقد كان الأطفال يحبون المدرسة ويكرهون عطلات نهاية الأسبوع!

فما مصدر هذه المتعة وهذا الفرح؟ إنه الأدب القصصي والأدب الغنائي، ولكنه يدرس بالطريقة التقليدية؛ وهي أن يجلس التلاميذ مكتوفي الأيدي وتقف المدرسة –أو المدرس– أمامهم تقرأ القطعة وتناقش معانيها وتسأل التلاميذ فيها واحدًا بعد واحد، وتجعل القطعة الأدبي درس لغة مملاً كريهًا!

للأطفال آدابًا يتمتعون بها ويسعدون، وهي إذا اختيرت بعناية ؟؟؟؟ عرضها عليهم، أو اشتركوا في تمثيلها أو غنائها كانت عاملاً قويًا من عوامل تربيتهم وتثقيفهم وتهذيب أخلاقهم، وترقية وجدانهم، واتساع دائرة خيالهم ومتعتهم. فعلى المدرسة أو المدرس إذن اختيار ما يناسب الأطفال من قصص لسردها عليهم أو لقراءة الأطفال إياها إذا استطاعوا ذلك.

ومما يؤسف له أن اللغة العربية ظلت حتى عهد قريب خالية من أدب القصة الصالحة للأطفال. ولكن بعض المربين والكتاب اتجهوا أخيرًا إلى الإنتاج في هذا الميدان. وبعض التجار كذلك!

أهداف تدريس أدب الأطفال:

قلنا إن الأدب بمعناه الخاص هو «الفكرة الجميلة في العبارة الجميلة» وهو بهذا المعنى الخاص من الفنون الجميلة التي تبعث في نفس القراء أو المستمع متعة وسرورًا بقدر ما فيه من جمال وما عند القارئ أو المستمع من حساسة فنية. ومن أهم أهداف تدريس الأدب للأطفال ما يأتي:

١- تنمية ملكة التخيل:

إن كل الأطفال يمتلكون القدرة على التخيل، ولون أن قوى التخيل عندهم تختلف من طفل إلى آخر. ومن خلال دراسة الأدب يستطيع الطفل الذي لديه قدرة كبيرة على التخيل أن ينمي ويقوي هذه القدرة. كما يستطيع أن ينمي قدرته في التعاطف مع الآخرين. وعلى هذا فمدرس الأدب يستطيع أن يساعد الطفل على تنمية وتوسيع قدرته على التخيل.

٢- توسيع المدارك والقدرة على حل المشكلات:

يستطيع الأطفال الذين يمتلكون قدرة أكبر ورغبة أعمق في دراسة الأدب توسيع مداركهم للحياة وتقدير الآخرين الذين يعيشون فيها. كما أنهم يستفيدون من خبرات الآخرين وقدرتهم على حل المشكلات. فالقراءة عن هؤلاء الذين كانت لديهم مشاكل مماثلة للمشاكل الموجودة لدى الطفل قد تساعد على حل مشكلاته، وتقدره على مواجهة المشكلات بعقل متفتح وذهن متوقد.

٢- السيطرة على فنون التعبير الرئيسية:

للأطفال في كل مجتمع الحق في الإطلاع على الإنتاج الأدبي الموجود في ثقافتهم باطلاع الطفل على مقدار مناسب من الإنتاج الأدبي القيم من الشعر والنثر تتسع ثروته اللغوية ويكتسب قدرة على تفهم المواقف الأدبية، وما تستلزمه من فنون التعبير المختلفة، وقد يصبح هذا أسلوبًا خاصًا تتميز به كتابته نثرًا كان أم شعرًا.

٤- تذوق الأدب والتمتع بما فيه من جمال:

إن التمتع بما في الأدب من جمال وموسيقى هدف هام، فللأسلوب الأدبي جمال خاص يحسه حتى من لم يفهم أسبابه. كما أن للشعر ميزة فنية أخرى هي الموسيقى الجارية بين أبياته والتي نحس تأثيرها يفعل فعله في نفوسنا. ولا يقتصر جمال الأدب وجاذبيته على جمال الأسلوب وإيقاع الموسيقى، بل ما يثيره فينا من أحاسيس ومشاعر سامية. وقد يترك في وجداننا صورًا جميلة تدفعنا إلى الاقتداء بها في أسلوبنا وفي عملنا.

٥- ترقية الأذواق وتهذيب الطباع:

الأدب يؤدي إلى ترقية أذواق الأطفال وتهذيب طباعهم، لما يتركه في أذهانهم من صور جميلة وخيالات راقية. وعلى هذا فالأدب الجيد معرض فني تشبع صوره الميول الفنية لدى الأطفال، وتذكي حاسة تقدير الجمال في نفوسهم، كما أن موسيقاه تطربهم وتنعش نفوسهم وتجعلهم يستقبلون الحياة بنفس راضية متفائلة، وحب لصانع الحياة واصنع الجمال فيها.

٦- تزويدهم بالمعارف والخبرات:

دراسة الأدب للأطفال تزودهم بالمعارف والخبرات للاستعانة بها في حياتهم كما أن هذه الدراسة أيضًا توقفهم على أنماط السلوك المختلفة، وحياة المجتمع في ماضيه وما سادها من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية، وتربوية... إلخ.